الطيب صالح

عرس الزين

الفصلان الأولان من « عرس الزين » ، وهي رواية قصيرة ستظهر مع رواية قصيرة اخرى للمؤلف في كتاب معاً في العام المقبل .

تأثر امام المسجد ايضاً بالحوادث العجيبة التي شهدتها القرية ذلك العام . كان رجلاً ملحاحاً متزمتاً كثير الكلام ، في رأي أهل البلد. كانوا في دخيلتهم يحتقرونه ، لأنه كان الوحيد بينهم الذي لا يعمل عملاً واضحاً — في زعمهم . لم يكن له حقل يزرعه ولا تجارة يهتم بها ، ولكنه كان يعيش من تعليم الصبيان ؛ له في كل بيت ضريبة مفروضة ، يدفعها الناس عن غير طيب خاطر . وكان يرتبط في اذهانهم بأمور يحلو لهم احياناً ان ينسوها : الموت ، والآخرة ، والصلاة . فعلق على شخصه في اذهانهم شيء قديم كئيب مثل نسيج العنكبوت . اذا ذكر اسمه خطر على بالهم تلقائياً موت عزيز لديهم ، او تذكروا صلاة الفجر في عز الشتاء ، وما يرتبط بذلك من وضوء بالماء البارد يشقق الرجلين ، وخروج من الفراش الدافىء الى لفح الصقيع ، وسير في غبش الفجر الى المسجد . هذا اذا كان الواحد منهم يذهب بالفعل الى الصلاة . اما اذا كان مثل محجوب ، وعبد الحفيظ ، واحمد اسماعيل ، والطاهر الرواسي ، وحمد ود الريس ، من النفر « العصاة » الذين لا يصلّون ، فانه يحس كل صباح بإحساس غامض يثير القلق ، من نوع الاحساس الذي يحسه الواحد منهم اذا نظر خلسة الى امرأة جاره . ويقول لك محجوب اذا سألته عن امام المسجد انه « راجل صعب . لا يأخذ ولا يدّي ... » معنى ذلك انه لم يكن يسايرهم او يخوض معهم في احاديثهم . لم يكن يعنيه ، كما يعنيهم ، اوان زراعة القمح وسبل ريّه وسماده وقطعه

او حصاده . لم يكن يهمه هل الذرة في حقل عبد الحفيظ نجح ام فسد ، وهل البطيخ في حقل ود الريس كبر ام صغر ؟ كم سعر اردب الفول في السوق ؟ هل هبط سعر البصل ؟ لماذا تأخر لقاح النخل ؟ كانت تلك اموراً ينفر منها بطبعه ويحتقرها بسبب جهله بها . ومن ناحية اخرى، كان هو يهتم بأمور لا يأبه لها الا القليلون في البلد. كان يتتبع الاخبار من الاذاعة والصحف ، ويحبّ ان يناقش هل ستقوم الحرب ام لا ؟ هل الروس اقوى ام الامريكان ؟ ماذا قال نهرو وماذا قال تيتو ؟ وكان اهل البلد مشغولين بجزئيات الحياة ، لا تعنيهم عمومياتها . وهكذا نشأت الهوة بينه وبينهم . لكنهم ان لم يحبوه ، فقد كانوا يعترفون بحاجتهم اليه . يعترفون مثلاً بعلمه ، فقد قضى عشر سنوات في الازهر . يقول الواحد منهم : « الامام ما عنده شغلة » ، ثم يضيف : « لكن الحق لله ، لسانه فصيح وكلاّم » . كان يلهب ظهورهم في خطبه ، وكأنه ينتقم لنفسه منهم ، بكلام متدفق فصيح عن الحساب والعقاب ، والجنة والنار ، ومعصية الله والتوبة اليه ؛ كلام ينزل في حلوقهم كالسم. يخرج الرجل من المسجد بعد صلاة الجمعة زائغ العينين ، ويحس وهلةً كأن سير الحياة قد توقف . ينظر الى حقله بما فيه من نخل وزرع وشجر ، فلا يحس بأي غبطة في نفسه . يحس انها جميعاً عرض زائل ، وان الحياة التي يحياها بما فيها من فرح وحزن ما هي الا جسر الى عالم آخر . ويقف برهة يسأل نفسه ماذا أعد لذلك العالم الآخر ؟ لكن جزئيات الحياة ما تلبث ان تشغل فكره ، وسريعاً ، اسرع مما كان يتوقع ، تغيب صورة العالم الآخر البعيد ، وتأخذ الاشياء اوضاعها الطبيعية . وينظر الى حقله فيحس مرة اخرى بذلك الفرح القديم الذي يعطيه مبررات وجوده. ومع ذلك فأكثرهم يعودون اليه في كل مرة ، ليجربوا نفس الصراع الغامض. يعودون اليه لأن صوته قوي واضح وهو يخطب ، عذب رخيم وهو يرتل القرآن ، مهيب مخيف حين يصلي على الاموات ، حازم عليم ببواطن الامور وهو يقوم بعقود الزواج. وكانت في عينيه نظرة احتقار وترفع ، يحس الواحد منهم وقعها حين يفقد ثقته بنفسه . كان مثل الضريح الكبير وسط المقبرة .

وكانت البلد منقسمة الى معسكرات واضحة المعالم ازاء الامام (لم يكونوا ابداً ينادونه باسمه ، فكأنه في اذهانهم ليس شخصاً بل مؤسسة) . معسكر أغلبه من الرجال الكبار العقلاء ، يتزعمه حاج ابراهيم ابو نعمه ، يعامل الامام معاملة ودّ يشوبه تحفظ . هؤلاء كانوا يحضرون كل الصلوات في المسجد ، ويبدو على وجوههم على الاقل انهم يفهمون ما

يقول . يدعونه الى الغذاء كل يوم جمعة بعد الصلاة، كل واحد منهم يدعوه يوماً بالتناوب . كانوا يدفعون اليه بصدقة الفطر في عيد رمضان، ويعطونه جلود الذبائح في عيد الاضحى. اذا تزوج احد أبنائهم او بناتهم ، اعطوه حقه نقداً ومعه رداء او ثوب . شذّ عن هـذا الفريق رجل في السبعين اسمه ابراهيم ود طه ، لا يصلي ولا يصوم ولا يزكّي ولا يعترف بوجود الامام . والفريق الثاني ، واغلبه من الشبان دون العشرين ، يعادي امام المسجـد عداء سافراً . بعضهم تلاميذ في المدارس ، وبعضهم سافر وعـاد ، وبعضهم يحس على اي حال بفيض الحياة حاراً قوياً في دمه ، فلا يحفل برجل صناعته تذكير الناس بالموت. هذا كان فريق المغامرين – منهم من يشرب الخمر سراً ويلم خفية « بالواحـة » في طرف الصحراء – ، وفريق المتعلمين ، الذين قرأوا او سمعوا بالمادية الجدلية ، وفريق المتمردين ، وفريق الكسالى الذين يصعب عليهم الوضوء في الفجر في عز الشتاء . ومن عجب ان زعيم هذه الفئة كان ابراهيم ود طه ، الرجل الذي جاوز السبعـين ، لكنه كان يقرض الشعر . والفريق الثالث وقد كان اكثر المعسكرات وزناً ، فريق محجوب وعبد الحفيظ والطاهر الرواسي وحمد ود الريس واحمد اسماعيل وسعيد . كانوا متقاربي الاعمار ، بين الخامسة والثلاثين والخامسة والاربعين ، الا احمد اسماعيل فقد كان في العشرين لكنه بحـكم مسؤوليته وطريقة تفكيره كان واحداً منهم . هؤلاء كانوا الرجال اصحاب النفوذ الفعلي في البلد . كان لكل واحد منهم حقل يزرعه ، هو في الغالب اكبر من حقول بقية الناس، وتجارة يخوض فيها . كان لكل واحد منهم زوجة واولاد . كانوا الرجال الذين تلقاهم في كل امر جليل يحل بالبلد . كل عرس هم القائمون عليه، كل مأتم هم الذين يرتبونه وينظمونه. يغسلون الميت فيما بينهم ، ويتناوبون حمله الى المقبرة . هم الذين يحفرون التربة ، ويجلبون الماء ، وينزلون الميت في قبره ، ويهيلون عليه التراب ، ثم تجدهم بعد ذلك في « الفراش » يستقبلون المعزين ، ويديرون عليهم فناجين القهوة المرة . اذا فاض النيل او انهمر سيل ، فهم الذين يحفرون المجاري ، ويقيمون التروس ، ويطوفون على الحي ليـلاً وفي ايديهم المصابيح ، يتفقدون احوال الناس ، ويحصرون التلف الذي احدثه الفيضان او السيـل . اذا قيل ان امرأة او بنتاً نظرت نظرة فاجرة الى احـد ، فهم الذين يكلمونها واحياناً يضربونها ، لا يعنيهم بنت من تكون . اذا علموا ان غريباً حام حول الحي حول المغيب، فهم الذين يوقفونه عند حده . اذا جاء العمدة لجمـع « العوائد » فهم الذين يتصدون له ، ويقولون هذا كثير على فلان ، وهذا معقول وهذا غير معقول . اذا ألمّ بالبلد احـد رسل

الحكومة (وهم لا يأتون الا لماماً) فهم الذين يستقبلونه ، ويضيفونه ، ويذبحون له الشاة او الخروف ، وفي الصباح يناقشونه الحساب ، قبل ان يقابل احداً من اهل البلد . والآن وقد قامت في البلد مدارس ، ومستشفى ، ومشروع زراعي ، فهم المتعهدون ، وهم المشرفون ، وهم اللجنة المسؤولة عن كل شيء . كان الامام لا يحبهم ، ولكنه كان يعلم انه سجين في قبضتهم ، اذ انهم هم الذين كانوا يدفعون له مرتبه آخر كل شهر ، يجمعونه من اهل الحي . كل موظف حكومة يحل بالبلد ، وكل من له حاجة يريد ان يقضيها، سرعان ما يكتشف هذا الفريق فلا تنجح له مهمة او يتم له عمل الا اذا تفاهم معهم. لكنهم كانوا، ككل صاحب سلطان ونفوذ ، لا يظهرون نزعاتهم الشخصية (الا في مجالسهم الخاصة امام متجر سعيد) . الامام مثلاً... كانوا يعتبرونه شرّاً لا بد منه ، فيحبسون ألسنتهم عن ذمّه ما استطاعوا ، ويقومون « بالواجب والمجاملة » كما يقول محجوب . لم يكونوا يصلّون ، ولكن واحداً منهم على الأقل كان يحضر الصلاة مرة في الشهر ، إما الظهر او العشاء في الغالب ، فالفجر لا طاقة لهم به - ويكون غرض الزيارة في الواقع شيئاً غير الاستماع لعظة الامام ، حينئذ يعطون الامام مرتبه ، ويتفقدون بناء المسجد اذا كان يحتاج الى اصلاح .

وكان الزين فريقاً قائماً بذاته . كان يقضي اعظم اوقاته مع شلة محجوب ، بل انه كان في الواقع احدى المسؤوليات الكبيرة الملقاة على عاتقهم . كانوا يحرصون على ابعاده عن المشاكل ، واذا وقع في ورطة اخرجوه منها. كانوا يعلمون عنه اكثر مما تعلم امه، يشملونه بعنايتهم ، وترعاه عيونهم من بعيد . وكانوا يحبونه ويحبهم . لكن الزين في موضوع الامام كان معسكراً قائماً بذاته ، يعامله بفظاظة ، واذا قابله قادماً من بعيد ترك له الطريق . ولعل الامام كان الشخص الوحيد الذي يكرهه الزين . كان مجرد وجوده في مجلس يكفي الى اثارته ، فيسب ويصرخ ويتعكر مزاجه . ويتحمل الامام في وقار هيجانَ الزين ، ويقول احياناً ان الناس أفسدوه بمعاملتهم له كأنه شخص شاذ، وان كون الزين وليّ صالح حديث خرافة ، وانه لو ربي تربية حسنة لنشأ عادياً كبقية الناس. لكن من يدري ، لعله هو الآخر أحس بقلق في صدره حين حدجه الزين باحدى نظراته، فكل احد يعلم ان الزين اثيرٌ عند « الحنين » ، والحنين ولي صالح وهو لا يصادق احداً الا اذا أحس فيه قبساً من نور .

الا ان الامور اختلطت اختلاطاً غير يسير في « عام الحنين » . فان « خيانة » سيف الدين ، أو « توبته » (حسب المعسكر الذي انت فيه) أضعف فريقاً وقوّى فريقاً . كان سيف الدين بطل « الواحة » وفارسها وزعيمها . فلما تحول الى معسكر « الاتقياء » « العقلاء » سرى الرعب في قلوب اصدقائه القدامى . كان من ناحية وارثاً ، فكان هو الذي يدفع ثمن الشراب في اغلب الاحيان . وكان ستاراً مفيداً يختفون وراءه في مجونهم ، اذ كانت البلد مشغولة به عنهم . وكان بعضهم يرى فيه رمزاً حقيقياً لروح الانطلاق والتمرد . وفجأة انهدت الارض تحت ارجلهم . ثم ان سيف الدين استغل معرفته بخباياهم ، فأصبح أخطر خصم لهم . واشتد ساعد الامام بسيف الدين . كانت « الواحة » دائماً شغله الشاغل ، تقوم في نظره رمزاً للفساد والشر . ونادراً ما كانت تخلو خطبة من خطبه من ذكرها . والآن وقد عاد سيف الدين الى جادة الصواب ، فقد زادت خطب الامام قسوة وزادت حملته قوة . واصبح سيف الدين المثل الذي يضربه كل مرة على ان الخير ينتصر في النهاية . لم يحفل الامام بأن « الحنين » ، وهو يمثل الجانب الخفي في عالم الروحانيات (وهو جانب لا يعترف به الامام) ، كان هو السبب المباشر في توبة سيف الدين. معسكر « الوسط » جماعة محجوب لم تتأثر كثيراً ، فهم يعتبرون « الواحة » ، كالامام سواء بسواء ، شراً لا بد منه . ولم يكونوا يأبهون كثيراً الى ان بعض شبان البلد يسكرون ، ما دام ذلك لا يؤثر على سير الحياة الطبيعي . لا يتدخلون الا اذا سمعوا ان شاباً سكراناً تهجّم على انثى او رجل من اهل الحي . حينئذ يلجأون الى اساليبهم الخاصة ، التي تختلف عن أساليب الامام . وفي تأييدهم لبقية الناس ، في محاولة تهديم « الواحة » ، لم يكونوا ينظرون الى عملهم كما ينظر له الامام ، محاولة لتغليب الخير على الشر . لا ، بل لأن زوال « الواحة » سيغنيهم عن متاعب عملية ، لا حاجة بهم لها .

المهم ان الامام فرح بسيف الدين فرحاً عظيماً . اصبح يذكره في خطبه . يتكلم وكأنه يتحدث اليه شخصياً . تراه خارجاً داخلاً معه . وقال احمد اسماعيل لمحجوب مرة وهو يرى سيف الدين والامام يمشيان معاً ذراعاً في ذراع : « وَدْ البَدَوي مِنَ الخَدَمْ للامامْ » .

وكان للامام رأي في أمر زواج الزين ، من نعمه بنت الحاج ابراهيم .

●

دخل محجوب دكان سعيد ، ووضع قطعة نقد على الطاولة ، فأخذها سعيد في صمت وأنزل من الرف علبة سجاير بجاري ، ووضعها في يد محجوب ومعها الباقي ، قطع معدنية صغيرة . أشعل محجوب سيجارة ، شدّ منها نفسين او ثلاثة ، ثم رفع وجهه الى السماء وتمعن فيها دون احساس ، كأنها قطعة ارض رملية لا تصلح للزراعة . وقال بفتور : « الثريا طلعت . وقت زراعة المَريقْ (الذرة) » . وظل سعيد مشغولاً بتفريغ علب من صناديق ووضعها على الرف . بعد ذلك تحرك محجوب ، وجلس قبالة الدكان . ليس على الكنبة ولكن على الرمل ، مكانهم المفضل ، حيث ضوء المصباح يمسهم بطرف لسانه ، فاذا ماجوا في ضحكهم احياناً تراقص الضوء والظل على رؤوسهم ، فكأنهم غرقى في بحر يغطسون ويطفون . بعد ذلك جاء احمد اسماعيل يجرجر رجليه كعادته ، واستلقى بظهره على الرمل قريباً من محجوب دون ان يقول شيئاً . ثم جاء عبد الحفيظ وحمد ود الريس ، وكانا يضحكان . لم يسلّما على صديقيهما ، وهذان لم يسألاهما عن سر ضحكهما . ذلك شيء آخر في تلك الفئة ، كانوا يعلمون بطريقة ما ، يعلمون ما يدور في ذهن كل منهم دون سؤال . وقال محجوب بعد ان بصق على الارض : « انْتو لِسّعْ في حكايات سعيد البومْ (الأبله) » ؟ كان احمد اسماعيل قد انقلب على بطنه فقال وكأنه يحدث الرمل : « لازم المَرَهْ عاوزه تطلّقه » . وقال عبد الحفيظ في مرح ان زوجة سعيد البوم جاءته في الحقل ، وقالت له وهي تبكي انها تريد ان تطلّق من سعيد . ولما سألها عن السبب قالت له ان سعيد كلّمها كلاماً قاسياً في الليلة الماضية وقال لها انها امرأة « جيفة » – هكذا – لأنها لا تتعطر ولا تتزين كبقية النساء . ولما قارعته الكلام ، صفعها على وجهها وقال لها : « امْشي أُخْدي دروسْ من بنات الناظر » . وكان الطاهر الرواسي قد وصل اثناء ذلك وجلس في هدوء في المكان الذي لا يصله النور من بقعة الرمل . ضحك وقال : « الشقي يمكنْ قابلْ الناظر بيعرّس له واحدَهْ من بَناتُهْ » . وقال عبد الحفيظ انه طيّب خاطر المرأة ، وردها الى بيتها ، وقال لها انه سيجيئهم ليكلم سعيداً . وفعلاً غدا اليهما وقت الظهيرة . لكنه تريث عند باب الدار ، فقد وجده مغلقاً وسمع داخله ضحكات سعيد وزوجته ، ضحكات هنيئة منشرحة ، وسمع سعيداً يقول لزوجته ، وكأنه يعض أذنها : « ابكي يا اختي ابكي » . وضحكوا كلهم ، كل واحد منهم على طريقته . احمد اسماعيل يكركر بضحك يزمجر بين بطنه وصدره . ومحجوب يضحك في فمه ويحدث طقطقة بلسانه . وعبد الحفيظ يضحك كالطفل . وحمد ود الريس يضحك

بجسمه كله ، وخاصة رجليـه . والطاهر الرواسي يمسك رأسه بجماع يديه حين يضحك . وكان سعيد في دكانه ، فضحك ضحكته الخشنة التي تشبه صوت المنشار في الخشب . وقال محجوب : « الشقي كيفنْ قدرْ عليها في الحردا ؟ »

واستمر حديثهم هكذا . حديث متقطع تتخلله فترات صمت . لم يكن صمتهم ثغرات في الحديث ، بقدر ما كان امتداداً له . يقول احدهم جملة مبتورة : « ما عندُه َفهمْ » .
ويقول الآخر : « الفاضي يعمل قاضي » .
ويضيف الآخر : « زمان قلنالكم َطلـّعوه من اللـّجنهْ قلتو لا » .
ويقول الآخر : « باذن الله دي آخر سنه ليه » .

ولا يدري الغريب عنهم عمن يتكلمون ، لكن ذلك شأنهم ، يتحدثون وكأنهم يفكرون جهاراً ، وكأن عقولهم تتحرك في تناسق ، وكأنهم بشكل او بآخر عقل كبير واحد . يمضي الحديث رتيباً مثل هذا ، ثم يذكر احدهم عرضاً جملة او حادثة تثير خيالهم جميعاً في وقت واحد . وفجأة تسري فيهم الحياة فكأنهم كومة قش اشعلت فيها النار . يستوي جالساً الذي كان راقداً على ظهره ، ويضم الآخر ذراعيه على ركبتيـه ، ويقترب الذي كان جالساً بعيداً ، ويخرج سعيد من دكانه . يقتربون بعضهم من بعض ، حينئـذ ، كأنهم يتحركون نحو تلك النقطة ، ذلك الشيء في الوسط الذي يسعون اليه جميعاً . يميل محجوب الى الامام ، وتنغرس يدا احمد اسماعيل في الرمل ، ويضغط ود الرواسي بيديه على رقبته . هذه هي اللحظة التي تلمحهم فيهـا ، بين النور والظلام ، وكأنهم غرقى في بحر . واحياناً يحتدّون في كلامهم ، يتشاجرون ، تخرج الكلمات من أفواههم كأنها قطع من الصخر ، تتقـاطع جملهم ، يتحدثون في آن واحد ، ترتفع اصواتهم . في مثل هذه الحالات يظن الغريب عنهم أنهم غلاظ الطبع . لهذا تختلف الآراء عنهم ، حسب اللحظات التي يراهم فيها الناس . بعض اهل البلد يعتبرونهم صامتين قليلي الكلام ، لأنهم يصادفونهم في احدى تلك الحالات ، حين يقف حديثهم عنـد « آ » و « او » و « لا » و « نعم » . وبعض الناس يقولون عنهم انهم « ضحاكون » كالاطفـال ، لأنه صادف ان وجدوهم في احدى حـالات غرقهم . ويحلف موسى البصير انه زامل محجوب الى السوق — مسافة ساعتين بالحمار — فلم يقل له كلمة واحدة . كان الناس يبتعدون عن مجالسهم ، لأنهم حينئذ

يحسون احساس الغريب ، وكانوا هم يفضلون ألا يكون بينهم غريب . كانوا كأنهم توائم، ولكن اذا عاشرتهم مدة ، تدرك الاختلافات التي تجعل كلاً منهم فرداً قائماً بذاته . احمد اسماعيل ، بحكم سنه ، كان أميلهم الى المرح، ولم يكن يبالي اذا انتشى بالخمر في المناسبات. كان احسنهم رقصاً في الاعراس. وعبد الحفيظ كان أكثرهم مجاملة للناس الذين لا يفكرون مثل تفكير « العصابة » كما كانوا يسمون انفسهم ويسميهم النـاس . كان هو الذي ينبههم الى ان ابن فلان تزوج ، وفلاناً مات ابوه ، وفلاناً عاد من السفر (من سكان الاحيـاء البعيدة عن حيهم) فيذهبون جماعة في الغالب ، للتهنئة او للتعزية . وكان احياناً يذهب للمسجد للصلاة ، دون علمهم . وكان الطـاهر الرواسي أقربهم للغضب ، وأسرعهم الى امساك عصاه او سحب سكينة في اوقات « الزنقة » . وكان سعيد أحسنهم في محاججة الحكام ، يسمونه « القانوني » . وكان حمد ود الريس ذا اذن حساسة لأخبار الفضـائح ، يجمعها من اطراف البلد ، من الاحياء البعيدة، ويلقيها عليهم في اوقات معينة في مجالسهم. وكانوا يندبونه في الغالب لمعالجة مشاكل « النسوان » في البـلد . وكان محجوب أعمقهم وأنضجهم . كان مثل الصخرة المدفونة تحت الرمل ، تصطدم بهـا اذا عمقت في حفرك . وكانت صلابتـه تظهر في الازمات الحقيقية ، حينئذ يصير « ريس المركب » يأمر وهم ينفذون . جاءهم مرة مفتش جديد للمركز ، اجتمعوا به مرة ومرتين . تحدثوا اليه ، وتناقشوا معه . ثم قرروا فيما بينهم انه غير صالح . وبعد شهر تأزمت الامور ، فقد قال المفتش لبعض الناس ان « عصابة محجوب » تسيطر على كل شيء في البلد . فهم اعضـاء في لجنة المستشفى ، ولجان المدارس ، وهم وحدهم لجنة المشروع الزراعي . ووصل اليهم ان المفتش قال : « ما فيش في البلد رجال غير الجماعة ديل ؟ » . لما تشاوروا في الامر بينهم ، كانوا أميل الى الرضوخ للامر الواقع ، وبعضهم عرض ان يستقيل من عضوية اللجان التي هو فيها . ولكن محجوب قال : « ما في انسان يتحرك من مكانه » . ثم لم يلبث المفتش غير شهر آخر حتى نقل. كيف تم ذلك ؟ لمحجوب أساليبه الخاصة، في الحالات القصوى.

كانوا يضحكون ، حين سمعوا الزين يشتم بأعلى صوته : « الراجل الباطل . الحمـار الدّكَر » . ووصل عندهم ، فوقف برهة فوقهم، ساقاه منفرجتان ، ويداه على خصره. كان نصفه الاعلى كله في الضوء ، ولاحظوا ان عيونه محمرة اكثر من احمرارها الطبيعي . قال الطاهر الرواس : « واقفْ فوقنا مالـك دايـر تشرَب دمّنا ؟ يا تقعُد يا تـَغور » .

وقال احمد اسماعيل : « لازم الزين سكران الليلة » . وقال عبد الحفيظ : « اقعدْ خدْ لكْ نفَس » . وقال حمد ود الريس : « قالوا الليلة كنت في حوش العمده . شِن مَشيت تسوّي ؟ البنت وعرّسوها ، تاني شِن داير ؟ » وأمسك الزين السيجارة من عبد الحفيظ وجلس صامتاً وأخذ ينفخ فيها بغيظ . ضحك الطاهر الرواس وقال له : « مو كدى يا مرمَّد . عامل نفسك فَنجَري ومتفَلهِم ، السيجارة ماك عارف تشربها. جرّهـــا لي ورا . أيي كدى ، زَي كأنك تمص فيهـــا » . ونجح الزين في جذب الدخان الى فمه ، فنفث منه غمامة كبيرة ، وقفت ساكنة برهة ثم ذابت في خيوط دقيقة ، بعضها نحا نحو الضوء والآخر اختلط مع سواد الليل في الجانب المظلم . وجـــاء بدوي من عرب القوز يقصد الدكان فقام اليه سعيد . وسمعوه يقول لسعيد : « خمسة ارطال سكر ونص رطـل شاي » . وقال احمد اسماعيل : « العرب ديل كل قروشن مودرنها في السكر والشاي » . وهنا صاح الزين بسعيد : « خلي المرة تعمل شاي تقيل باللـبن ... يكون مضبوط » . فقال له سعيد : « حاضر يا زعيم . نعمل لك شاي مضبوط باللبن » . ثم نادى من شباك

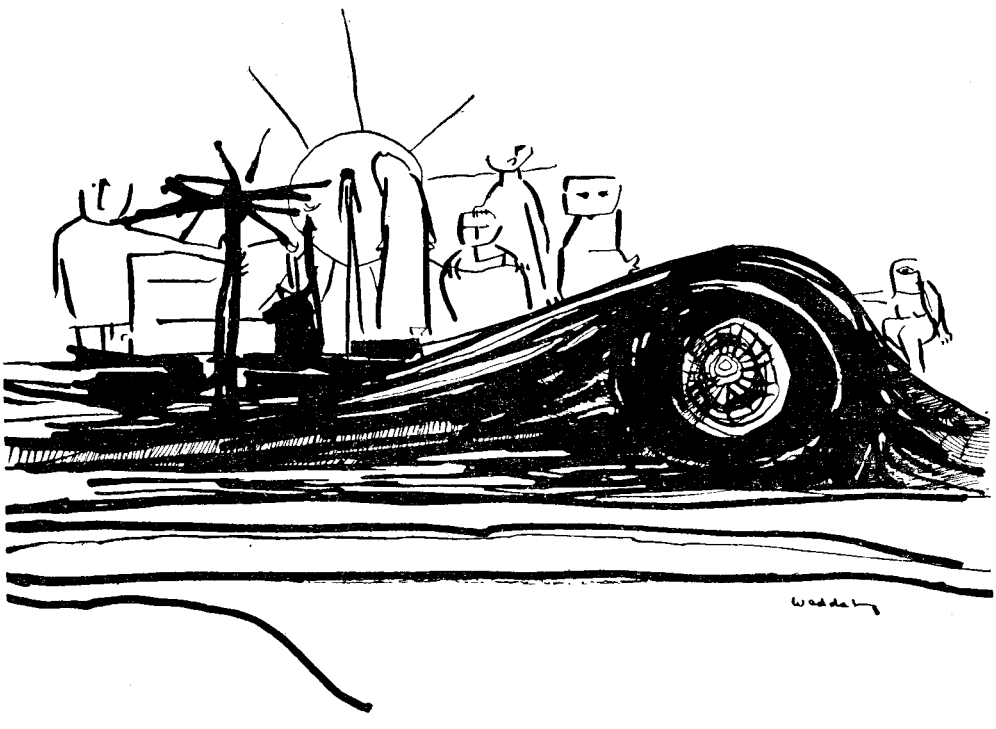

يصل بين المتجر والدار خلفه : « اعملوا قوام شاي تقيل باللبن للزعيم » . وانتعش الزين ، فقال بمدح : « انا أرجـل راجل في البلد دي ولاّ لا ؟ » فقال له الطاهر : « طبعـاً » . « طيب ليه الحمار الدّكر ، يروح لي عمي ويقول له الزين مش راجل بتاع عرس ؟ » وقال ود الريس : « الامام غاير منك . داير المره لي رقبته » .

فقال الزين : « بـِت عمي ولاّ لا ؟ يروح يشوف له بـِت عم » .

قال له محجوب بحزم : « العقد يوم الخميس الجاي . بعد دا ما فيش طرطشة ورقيص وكلام فاضي . سمعت ولاّ لا ؟ »

سكت الزين .

وسأله الطاهر الرواسي : « منو القال لك ؟ » فقال الزين : « هي نفسها كلمتني » . كان محجوب ممداً رجليه على الرمل ، متكئاً على ذراعيه ، فلمـا سمع هذا تشنج جسمه كأن احداً قرصه ، واستوى جالساً : « هي بنفسها كلمتك ؟ »

«أيي . جاتني الصباح بدري في بيتنا . وقالت لي قدام امي : يوم الخميس يعقدوا لك علي . انا وانت نبقى راجل ومره . نسكن سوا . ونعيش سوا » .

وارتفع صوت محجوب من فرط حماسه، وقال في اعجاب ليس له حدّ : « عليّ باليمين مره تملا العين . طلاق بـِت ما ليها اخت » . وجاء سعيد يحمل الشاي فقال له محجوب : « سمعت الكلام دا ؟ البـِت مشت كلمته بنفسهـا » . فقال سعيد: « بـِت عنيده راسها قوي . ربنا يستر » . صمت الباقون برهة ، ولكن محجوب ضرب فخذه براحة يده عدة مرات وقال وهو يتلفت يميناً وشمالاً ، بحماسة وانفعال : « يمين الزين ماش يعرّس له بتّا تمشيه فوق العجين ما يلخبطه » .

وشرب الزين الشاي ، في صخب كعادته ، يمص الشاي مصّاً له زئير . وفجأة وضع الكوب من يده ثم ضحك . وقال في سرور : « الحنين قال لي قدامكم كلكم : باكر تعرّس احسن بـِت في البلد ». ثم انفجر بزغرودة عظيمة ، كزغاريد النساء في العرس ، وصاح بأعلى صوته : « أدروك يا ناس الغريق ، يا اهل البلد ، الزين مقتول ... قتلته نعمه بنت الحاج ابراهيم » . وصمت بعد ذلك فلم يفه بكلمة . ولم يلبثوا ان سمعوا صوت سيف الدين (انتصار آخر للامام) يؤذّن لصلاة العشاء ، فسرت فيهم حركة خفيفة جداً . تنحنح محجوب ، وحرك احمـداسماعيل اصابع قدمه بطريقة لا شعورية ، وتنهد عبد الحفيظ ، ومال الطاهر الرواسي الى الوراء قليـــلاً ، وقال سعيد : « اشهد ألا إله الا الله » وراء

المؤذن بصوت خافت ، ونفخ حمد ود الريس في رمل لا وجود له ، من يده . ولما انتهى الاذان وسمعوا صوت الامام ينادي في صحن المسجد : « الصلاة، الصلاة » قام كل واحد منهم الى بيته ليحضّر عشاءه . وكما يصلي الناس جماعة في المسجد، سيتعشون هم مجتمعين، جالسين في دائرة حول صحون الطعام ، يرف عليهم ضوء المصباح الكبير المعلق في متجر سعيد . يأكلون بنهم ، شأن الرجال الذين تعرق جباههم من الجهد سحابة يومهم. يأكلون الدجاج المحمر ، والملوخية بالمرق، والبامية المصنوعة في الطاجن . في كل ليلة يذبح احدهم اما شاة صغيرة ، واما حملاً . ويغدو عليهم اطفالهم بمزيد من الاكل ، ينزل الصحن مليئاً وما يلبث ان يرتد فارغاً . هذا الوقت من الليل هو قمة يومهم ، لمثل هذا تعمل زوجاتهم من طلوع الشمس الى غروبها . يأتيهم المرق في صحون عميقة واللحم المحمّر في صحون بيضاوية واسعة . يأكلون الارز وخبزاً سميكاً من القمح ، وفطائر رقيقة تصنع على صاجات ملساء من الحديد . يأكلون السمك واللحم والخضار ، والبصل ، والفجل ، لا يبالون ماذا يأكلون . حينئذ تتوتر عضلاتهم ويصبح حديثهم حادّاً مبتوراً ؛ يتحدثون وأفواههم ملأى . يأكلون في صخب ، تسمع صرير أسنانهم وهي تمضغ الطعام ، واذا شربوا قرقرت حلوقهم بالماء . يتكرعون بأصوات عالية ، ويمصمصون بشفاههم . وحين ترتد الأواني فارغة ، يؤتى بالشاي ، يملأون أكوابهم ، ويشعل كل واحد منهم سيجارة ويمدّ رجليه ، ويسترخي في جلسته . يكون الناس قد فرغوا من صلاة العشاء . يتحدثون في هدوء وقناعة ، ولعلهم حينئذ يشعرون ذلك الشعور الدافىء المطمئن الذي يحسه المصلون وهم يقفون صفاً خلف الامام ، كتفاً بكتف ينظرون الى نقطة بعيدة غامضة تلتقي عندها صلواتهم . في هذا الوقت تخف الحدة في عيني محجوب ، وهما سارحتان في الخط الضئيل الباهت الذي ينتهي عنده ضوء المصباح ، ويبدأ الظلام (اين ينتهي ضوء المصباح ؟ وكيف يبدأ الظلام ؟) . يعمق صمته وقتذاك ، واذا سأله احد اصدقائه فلا يسمع ولا يرد . هذا هو الوقت الذي يقول فيه ود الريس ، فجأة ، جملة واحدة ، كأنها حجر يقع في بركة : « الله حي » . ويميل احمد اسماعيل برأسه قليلاً ناحية النهر ، كأنه يستمع الى صوت يأتيه من هناك . في مثل هذا الوقت ايضاً، يطقطق عبد الحفيظ اصابعه في صمت ، ويتنهد الطاهر الرواسي ملء صدره،ويقول: « روح يا زمان وتعال يا زمان».

هل يحسون حينئذ انهم يزدادون قرباً من تلك النقطة؟ أم تراهم يدركون ان النقطة الغامضة الصامتة في الوسط أمر تنتهي الحياة ولا ينتهي اليه المرء ؟